الفصل السابع

الرواية العربية والبحر

١ – حنا مينه روائى البحر العربى :

ما زال الأدب العربى الحديث أسير المدينة والقرية ، والعوالم المألوفة ، ومشكلات وتطلعات الطبقة الوسطى . فبالرغم مما يتمتع به وطننا العربى من سواحل بحرية طويلة تطل على المحيط والبحر والخليج ، فإن هذا العالم البحرى لم ينعكس بشكل كاف فى أدب بحر عربى حديث . هذه هى القاعدة وتشكل روايات حنا مينه الاستثناء ، مع بعض الروايات العربية الحديثة التى تعد على أصابع اليد الواحدة ، كرواية « السفينة » لجبرا إبراهيم جبرا ، و« من مكة إلى هنا » لصادق النيهوم .

فإذا كان هرمان ملفل صاحب « موبى ديك » هو روائى البحر الأول فى الأدب العالمى . فإن حنا مينه ، مبدع « الشراع والعاصفة » وغيرها من روايات البحر ، هو روائى البحر الأول فى الأدب العربى الحديث ، إذ يشكل البحر قسمة رئيسية فى حياته وأدبه الروائى . « ولو كان حنا فى بلد غير بلدنا وترجمت أعماله إلى العربية لتغنينا بها ، وتحدثنا طويلا عن « الشراع والعاصفة » كما نتحدث عن « العجوز والبحر » ، فهل تكون المعاصرة حرمانًا لبعض المعاصرين يا ترى ؟ كما كتبت الناقدة الدكتورة نجاح العطار[1] وزيرة الثقافة السورية فى دراستها عن رواية « الشراع والعاصفة » ، وظاهرة الطروسية ، نسبة إلى بطلها الملحمى المعلم البحار محمد الطروسى .

وفى لقاء مع حنا مينه ، بمكتبه بوزارة الثقافة السورية فى دمشق ، سألته عن قصته مع البحر وعن سر اهتمامه بالتعبير عن عالمه ، فأجابنى إجابة تدل على مدى عمق صلته بالبحر . قال لى حنا وعيناه تلمعان بلون البحر وقد تغير صوته وقويت تقاسيم وجهه الطفولى : « أنا نفسى لا أعرف أحيانًا لماذا ملك علىّ البحر كل مشاعرى وحواسى . بحار أنا ومن عائلة بحارة .

---

(١) الدكتورة نجاح العطار ، الطروسية وعالم حنا مينه الروائى ، مجلة « المعرفة » ، عدد إبريل (نيسان) ١٩٧٤ .

وقد عشت فى السويدية وإسكندرونة واللاذقية على شاطئ البحر . ولكن كل هذا لا يكفى لتبرير هذه الآصرة الحميمة التى نشأت بينى وبين البحر . نوع من الوجد ، نوع من العشق ، نوع من انخطاف كلى إلى عالم البحر غمر كيانى كله منذ وعيت الوجود وصافحت عيناى مياه البحر المتوسط الزرقاء . لعل البحر ، فى رحابته ، فى امتداده اللا نهائى ، فى انبساطه كمدى الظن ، هو الذى يؤمن لى تلك الرحلة الروحية مع عالم متخيلاتى بدون أن أصطدم بجدران الأبنية أو صخور الجبال أو حواجز الأشجار . والعالم الغريب المليء بالرجولة والتحدى والمعاناة والمقاومة والنذالة والفظاظة والخشونة والمشاكسة ، وكل المتناقضات العجيبة التى توفرها الموانئ ، هى التى شدتنى وسحرتنى وأنبتت فى ذاتى تلك الرغبة الآسرة إلى التعبير عن عالم البحر ورجاله ومخلوقاته . وعندما فعلت ذلك لم أكن أعرف أن هذه الأرض البكر بالنسبة للأدب العربى لم يطرقها إلا القليلون من الأدباء العرب ، أو لم يغص فيها كما غصت أنا . بعد ذلك اكتشفت أن البحر وعالمه مجهولان بالنسبة للقارئ العربى . وبرغم ذلك فإننى لم أكتب عن البحر لأبهر هذا القارئ ، بل لأفرغ شحنة الحب الكبيرة التى تملأ صدرى نحو البحر وكائناته . يقال إننى كتبت عن البحر كثيرًا وجيدًا وشاملا ، وأقول فى غير ميل للتواضع إننى لم أكتب كثيرًا ولا جيدًا ولا شاملا ، لأن وجود البحر أكبر من وجودى وأعصى من أستطيع ، ولو كتبت عنه إلى نهاية عمرى ، أن أصور بعض عالمه الرحيب . ولقد فكرت منذ سنوات أن أدع الوظيفة والكتابة وأمضى لأعمل بحارًا على إحدى السفن . وتقدمت بطلبات لذلك إلا أنها رفضت مع الأسف لأن العمر قد تجاوز المرحلة المرغوبة فى الإنسان كبحار . وإننى أفكر الآن مخلصًا أن أغادر دمشق وجوها الأدبى وكل ما توفره العاصمة من إمكانات للحياة الأدبية ، وأذهب لأستقر فى مدينة اللاذقية إذا عجزت أن أسكن فى نقطة بعيدة على شاطئ البحر فى طرف غابة من غاباتنا التى تغتسل جذورها بمياهه الزرقاء . إن « زكريا المرسلى » فى رواية « الياطر » هو توق وهو حلمى فى حياة حرة لا أعود فيها إلى الطبيعة ، ولا أدعو من خلالها للعودة إلى الطبيعة ، ولكنى أتخذ من أنسنة الطبيعة مجالا للعافية النفسية التى توفر لى الوقت والجو لكتابة أعمال جديدة »[٢] .

ولد حنا مينه فى سنة ١٩٢٤ بمدينة اللاذقية السورية المطلة على شرق البحر الأبيض المتوسط ، لأب فقير يعمل حمالا فى ميناء اللاذقية وبائعاً جوالا وجد بحار . وانتقل حنا مع

(٢) راجع النص الكامل للحوار ، بمجلة الدوحة ، عدد مايو ١٩٧٨ .

أسرته الفقيرة إلى قرى لواء إسكندرونة ، قبل أن تنتزعه تركيا ، حيث قضت الأسرة ثلاث سنوات من الحياة المعدمة البائسة ، التى وصفها حنا فى سيرته الذاتية الروائية «بقايا صور» . وتنقلت الأسرة بين قرى اللواء حتى استقرت فى ميناء إسكندرونة الواقع فى أقصى الشمال الشرقى للبحر الأبيض المتوسط . وفى مدارس إسكندرونة تلقى حنا تعليماً ابتدائيًا فرنسيًا .

وفى سن الثانية عشرة عمل حنا مع أقرانه من الصبية الفقراء فى دفع العربات الحديدية المحملة بالبضائع من أمام البواخر الراسية على البحر إلى مستودعات الميناء ، فانتقل من عالم الضعفاء إلى عالم البحر ورجاله الأقوياء ، ومن أقوى النماذج البشرية التى خالطها حنا فى صباه على شاطئ البحر ، واختزنها ليكتب عنها فيما بعد فى قصته « على الأكياس »[٣] ، شخصية « اليازرلى » رئيس عمال البحر القوى الجبار طيب القلب ، الذى تحول إلى بطل لفيلم سينمائى سورى طويل يحمل اسمه . غير أن ضعف بنية حنا الناتج من الفقر وسوء التغذية ، وتميزه عن أقرانه بمعرفة القراءة والكتابة دفعت « اليازرلى » إلى إعفائه من العمل البدنى الشاق وتكليفه بالكتابة على الأكياس فى مخازن الشاطئ .

وفى مخازن الشاطئ وعلى أكياسها دخل حنا عالم الكتابة ، وبدأ أولى قراءاته النهمة بألف ليلة وليلة ، التى لم تلبث أن اتسعت وتنوعت مع تقلبه فى أعمال ومهن شتى من مستخدم فى محل بقالة إلى مساعد صيدلى وحلاق ، حتى استولت تركيا على لواء إسكندرونة فى عام ١٩٣٩ ، فهاجر حنا مع أسرته وجحافل الأسر السورية إلى مدينة اللاذقية الساحلية مسقط رأسه ليفتتح محل حلاقة ويخالط البحارة وعمال البحر ويختزن حكاياتهم وذكرياتهم ليصبها فى رواياته .

وفى اللاذقية عرف حنا السجن السياسى لأول مرة بعد أن قبض عليه لاشتراكه فى مظاهرات المطالبة بالاستقلال فى أعقاب انتهاء الحرب العالمية الثانية . وبعد خروجه من السجن فى سنة ١٩٤٦ أغلق محل الحلاقة وتفرغ للعمل الصحفى والأدبى ابتداءً من ذلك التاريخ ، مثريًا المكتبة العربية بأعمال قصصية وروائية يشكل عالم البحر القسمة الرئيسية المميزة فيها ، « المصابيح الزرق » (١٩٥٤) ، « الشراع والعاصفة (١٩٦٦) ، « الثلج يأتى من النافذة » (١٩٧٣) ، « الياطر » (١٩٧٥) ، « بقايا صور » (١٩٧٥) .

تقع أحداث روايته الأولى « المصابيح الزرق » فى مدينة اللاذقية الساحلية . وتصور الحياة السورية على سواحل البحر المتوسط خلال سنوات الحرب العالمية الثانية . وهى نفس الفترة

(٣) حنا مينه ، على الأكياس ، مجلة المعرفة ، عدد أبريل (نيسان) ١٩٧٠ .

التى عاشها حنا فى اللاذقية . ومع أن الرواية تستهدف تصوير الواقع الاجتماعى والسياسى المتفجر ، من جراء معاناة سكان اللاذقية لوطأة الاستعمار الفرنسى والنهب الاستعمارى وسيطرة العملاء وتجار الحرب والسوق السوداء . إلا أن حنا زج فى الرواية بلوحات تصور حياة الصيادين ، وهى لوحات قطعت تدفق السياق الروائى لأنها لا تتفق مع المعمار الفنى للرواية ولا موجب فنى لها . ولكن خبرات الروائى بعالم البحر وحياة الصيادين فرضتها فرضًا على سياق روايته ، عندما جعل فارسا يذهب للصيد مع الصياد العجوز « أبو رزوق الصفتلى » ومن هنا دارت بينهما الأحاديث عن مهنة الصيد وعالم البحر والكائنات البحرية . ومع هذا فقد شكل البحر وعالمه ورجاله وصياديه الخلفيةأو الأرضية التى تتحرك عليها شخصيات الرواية .

أما رواية « الشراع والعاصفة » فهى أعظم أعمال حنا مينه الروائية بإجماع نقاده ، ليس بسبب تفردها بالتعبير عن عالم البحر وريادتها لأدب البحر الروائى العربى فحسب ، بل بسبب معمارها الفنى المتقدم وشمولية التناول ، وجمعها بين الرؤيا والرؤية وتركها الوصف الخارجى والنفاذ إلى الجوهر وإبداعها لشخصية بطلها الملحمى البحار محمد الطروسى أنموذج الشخصية القوية الإيجابية المقاومة والمنتصرة عبر كل الصراعات .

كتب حنا مينه « الشراع والعاصفة » سنة ١٩٥٨ ، ولكنها لم تنشر إلا بعد ذلك بثمانى سنوات فى سنة ١٩٦٦ . وطوال تلك الفترة المفقودة التى شهدت هجرة حنا إلى المجر والصين ، فقدت نسخ الرواية المخطوطة أكثر من مرة ، وتنقلت بين أيدى الأصدقاء حتى قدر لها الظهور أخيرًا فى بيروت . ومن الطريف أنه بعد صدور الرواية ، ذهب بعض بحارة اللاذقية إلى أم حنا التى لم تزل مقيمة بها ، وقد وجد كل منهم نفسه فى شخصية « الريس البحار محمد الطروسى » بطل الرواية ، قائلين « الطروسى كان جدى .. إنه أبى .. بل هو أنا » كما روى حنا فى « رسالة من أمى »[٤] .

فالطروسى بطل جبار من الأبطال الأقوياء الذين يزخر بهم أدب البحر ، ويتخلقون عبر الصراعات الهائلة فى عالم البحر ، وهو يضيف إلى بطولته فى البحر ، بطولة مماثلة فى البر وعلى الشاطئ ، كمناضل صلب لا يلين عن حقوق البحارة وعمال البحر ضد قوى الظلم والاستغلال . وذلك خلال فترة تواجده فى مقهاه على شاطئ بحر اللاذقية ، فى الفترة التى قضاها بعد غرق سفينته المنصورة وعودته إلى البحر مرة أخرى ، وهى فترة عاشها الطروسى بين

(٤) حنا مينه ، رسالة من أمى ، مجلة المعرفة ، عدد مارس (آذار) ١٩٧٠ .

البحارة فى مقهاه وفى الميناء وعلى الساحل يرقب البحر تواقًا إلى العودة إلى الإبحار بسفينته فوق أمواجه ليحقق ذاته وبطولته وفحولته وتنثال الذكريات فى صراعات البحر وحب البشر فى الموانئ والشواطئ .

الطروسى بطل فذ متميز من أبطال المقاومة الإنسانية فى عالم البحر ، أنموذج للنبل والكرامة والشهامة والفحولة والفروسية والاعتداد بقدرة الإنسان على النضال والانتصار فى كل صراعاته ، طالما داوم مصرا على الكفاح والنضال والمقاومة . « لقد قدمت « الشراع والعاصفة » ، بطلا ملحميًّا هو الطروسى ، وعلى امتداد عشرات الصفحات لا نرى إلا شراعه الضارى مع العاصفة ، ولا نسمع إلا هدير الموج المرتطم على صخور الشاطئ وجسم شختورة الرحمونى فى قلب اللجة » ، كما تقول الدكتورة نجاح العطار فى دراستها « جدلية الخوف والجرأة »[٥] .

فى « الشراع والعاصفة » يعود حنا مينه إلى مدينته الساحلية الأثيرة اللاذقية . يعود برؤية جديدة وطموح جديد للنفاذ إلى جوهر المدينة البحرية ، وتأثير عالم البحر على مجريات الحياة والشخصيات بها . إنها رواية البحر يتجلى فيها عشق حنا للبحر من خلال شخصية بطله البحار الطروسى الذى يحب البحر ، ويتفتح للحياة والمرأة والرجولة والفحولة ، فالبحر عند حنا هو عالم الرجولة والفحولة والقدر أيضاً ، كما يقول بطله الطروسى : « أنا إنسان لا تستطيع امرأة واحدة أن تضبطنى ، ثم هناك سبب آخر ، فالبحار النازل إلى البحر كالجندى الذاهب إلى المعركة ، لا يعلم أيعود أم لا ؟ وقد رأيت كثيرًا من أرامل وأيتام البحارة ، فأدمى منظرهم قلبى وخفت الزواج وإنجاب الأطفال .. البحار يغيب عن بيته عدة شهور ، ورائحة البيت تهيج الرجولة ، وهذه رأسمال البحار ، إذا لم يكن رجلا لا يصبح بحارا ولو قضى حياته فى الماء ، وللرجولة حقها ، ونحن نتصرف بموجب هذا الحق ، فمن يلومنا »[٦] .

يعتمد البناء الفنى فى رواية « الشراع والعاصفة » على رسم شخصية بطل الرواية ونموها وتطورها عبر أحداث الرواية ، والعلاقة مع شخصياتها الثانوية وصراعاته فى عالمى البر والبحر . وتتدفق أحداث الرواية عبر الصور الفنية الثرية التى تشى بخبرات حنا بعالم البحر ، والصيد والصيادين ، والسفن ، وأساطير البحر ، وحياة البحارة وجولاتهم وصراعاتهم ونزواتهم

---

(٥) الدكتورة نجاح العطار ، جدلية الخوف والجرأة ، دراسة نقدية فى مقدمة رواية حنا مينه « بقايا صور » .
(٦) حنا مينه ، الشراع والعاصفة ، ص ٤٧ .

ونضالهم أيضًا . والزمن غير مسلسل بل تتجاور الأزمنة المختلفة وتتنقل مشاهد الرواية من الأزمنة إلى الأمكنة إلى الشخصيات بدون أن يختل السياق الروائى ، أو يعوقه حشو أو مباشرة . وبالإضافة إلى عالم البحر تصور الرواية الصراعات الوطنية والاجتماعية فى مدينة اللاذقية خلال الحرب العالمية الثانية ، ومع أن الطروسى بطل غير مسيس وقد أعلن مرارًا أنه لا شأن له بالسياسة ، إلا أنه شارك فى عمليات نقل الأسلحة عبر البحر إلى رجال المقاومة . فالطروسى بطل من عالم البحر ، يمارس النضال على الأرض دفاعًا عن الوطن وعن حقوق البحارة ، فالحياة عند حنا كفاح ونضال ومقاومة وإصرار على الانتصار على قوى الطبيعة وقوى الظلم والشر والاستغلال والاستعمار ، أى كفاح فى البر والبحر .

ولعل أجمل الصور المعبرة عن توق « الطروسى » إلى العودة إلى البحر ، تلك التى صوره فيها حنا جالسًا ، فى مقهاه المطل على البحر ، بين البحارة والصيادين العائدين من البحر يغبطهم على عالمهم الحبيب إلى قلبه ويتوق إلى موقفه فوق سفينته ، صائحًا فى رجاله ، « وكان الطروسى يظل أمام هذا الفيض النابع من أعماق الشعور فى نفوس البحارة والصيادين ، سادرًا لا يتكلم ، متماسكًا لا يسمح لنفسه بأن تتلاعب به عاطفة تخرجه عن الصورة التى عرفه بها بحارته : صورة الريس الذى يقف على الدفة فى مصطخب الأنواء ، هازئًا بالموت ، صامدًا للريح ، باعثًا للثقة فى نفوس الذين معه ، صائحًا بهم أبدًا : هورسا يا شباب »[٧] .

رواية « الشراع والعاصفة » هى أنشودة البحر وتعبير عن عشق البحر الذى يتجلى فى نظرات بطلها الطروسى التى يرنو بها إلى البحر من محله فى مقهاه على الشاطئ ، تنساب ذكريات رحلاته البحرية مع الأمواج والعاصفة وقسوة الطبيعة وجمالها ، وأغنيات البحارة وعملهم فى دنيا البحر ، دنيا الكفاح والرجولة والصبر ، بعيدًا عن ازدحام المدينة وتلاصق بيوتها . كما يقول الطروسى « البحر فروسية ، أنا هكذا أفهم هذه الصنعة الملعونة »[٨] ، « فالبحر لا يخيف الرجال ، الموج جبال على رأسى ، ولكن الرجال أقوى من الجبال ، الرجال تهد الجبال .. »[٩] وتحين الفرصة لفروسية الطروسى للعودة إلى البحر الصاخب بحثاً عن سفينة الرحمونى « الشختورة » المفقودة فى مياه البحر العاصفة . هنا يحقق الطروسى ذاته ، ويسترد

---

(٧) المصدر السابق ، ص ١٧٨ و ١٧٩ .

(٨) المصدر السابق ، ص ٢٠٩ .

(٩) المصدر السابق ، ص ٢٣٣ .

روحه وقوته ورجولته وشهامته ونبله ، نجدة للريس البحار الرحموني وسفينته ورجاله وإنقاذًا لهم من الغرق فى أمواج البحر العالية والعاصفة الهائجة الجبارة . وهنا يطرح حنا مينه كل عشقه للبحر وكل خبراته وذكرياته وصوره المختزنة عن عالم البحر والبحارة وأغنياتهم ونضالهم .

فى البحر تنطلق قوى الطروسى غير مبال بالسفينة تعلو وتهبط كالريشة فى مهب الريح ، فهو أخيرًا يسترد موقفه الثابت فوق البحر المضطرب ، يقود الرجال ويشد عزائمهم للنضال والمقاومة ، ويصارع الطبيعة ويؤكد فروسيته ونبله بالعمل على إنقاذ زميله الرحموني ، والسفينة وبحارتها ، إنه يحاول إنقاذ سفينة الرحموني من مصير سفيته المنصورة حتى لا يتكرر حاله مع الرحموني ، بعد أن تحطمت سفيته ولم يستطع تعويضها فقبع حزينًا فى مقهاه على الشاطئ يترقب لحظة العودة إلى البحر .

وهكذا يقفز الطروسى إلى مياه البحر الهائجة سابحًا مقاومًا لأمواجه ودواماته مغامرًا مع بحار مغامر نزل معه إلى الماء لإنقاذ سفينة الرحموني . وتصور الرواية إقدامه على الخوض فى البحر العاصف كمحاولة للتغلب على الصراعات الدائرة فى أعماقه ومنع تردده . « لم يعد يفكر بشيء ، فى البحر ولد فأية غرابة أن يموت فيه ؟ ثم هو فى قلب الخطر ولم يبق إلا الكفاح حتى النصر أو الموت . وحتى لو تلفت إلى وراء طلبًا للنجاة فإنه غير مدركها بأية حال . لقد أحرق السفن وراءه متعمدًا ليقطع كل طريق على وساوس الضعف التى قد تنتابه وتلح عليه »[١٠] .

وعبر مقاومات بطولية وصراعات شاقة مع قوى البحر ، ينتصر الطروسى محققًا هدفه بإنقاذ سفينة الرحموني . وقد أثر بعمله البطولى فى سائر شخصيات البحارة ، وأهل اللاذقية وأصحاب السفن ، وعلى رأسهم الرحموني ، الذى طلب منه العودة إلى البحر رئيسًا ومعلمًا فوق السفينة . ولكنه رفض أن يقبل جزاء عمله البطولى النبيل ، وفضل أن يكون شريكًا يدفع نصف ثمن السفينة . غير أن إنهاء الحرب العالمية الثانية وبداية الصراع ضد الاستعمار الفرنسى شدته إلى المشاركة الفعالة فى أعمال المقاومة ضد المستعمرين فى تهريب الزعماء الوطنيين والأسلحة عبر البحر أيضًا . فأخرت رحيله ، لأنه رجل المهام الصعبة والكفاح فى البر والبحر . ولكنه لم يلبث أن باع المقهى رافضًا أن يكون مقره فى المقهى « فالمقهى باب رزق ، أما البحر (سكت كأنه يفتش عن كلمة) البحر حبيب » . وتصور الرواية الصراع الناشب فى أعماق

(١٠) المصدر السابق ، ص ٢٨٤ .

الطروسى بين العودة إلى البحر والبقاء فى الأرض وضغوط الأهل والأحباب ، الذى حسمه بالتصميم على العودة إلى البحر ، عالمه الحقيق ، بيته وحبيبه .

ومن أجمل مشاهد الرواية تلك التى صور فيها حنا عودة الطروسى إلى البحر . حيث تمتزج نبضات الأمل والحدس والإلهام ، بصور الطبيعة والشاطئ والميناء ، وخروج البحارة والصيادين ، مع إطلالة شمس الصيف على البحر والصخر والشجر والسفن . وكذلك مشهد الطروسى أخيرًا واقفًا مشدودًا على رأس سفينته ، يقود حركة الرجال ويعطى إشارة الإقلاع . على حين تأخذ مدينة اللاذقية فى الابتعاد والاختفاء ، ويبقى الطروسى مع عالمه الحبيب ، البحر .

« الياطر » أحدث روايات حنا مينه البحرية ، الجزء الأول من ثلاثية روائية تحمل ذات العنوان . ويشير عنوانها إلى مضمونها ، فتعنى الياطر المرساة أو « هلب » السفينة الذى يثبتها ويشدها إلى الأرض .

وفى هذه الرواية يواصل حنا مينه ، روائى البحر العربى ، تقديم شخصياته الشعبية المقاومة والمناضلة . فيقدم شخصية الصياد الفقير « زكريا المرسنلى » المستسلم الراضخ لوضعه المعيشى المهين . وعندما يواجه مصيره بقوته الجسدية وخبرته بعالم الصيد والبحر فى معركة تحد لصيد حوت جبار . يقوم خلالها المرسنلى بدور البطل وينجح فى صيد الحوت والانتصار عليه . ويقوده هذا الانتصار الإنسانى إلى اكتشاف واقعه المهان ككادح مستغل والتمرد عليه . فيرتكب جريمة قتل خطأ ويفر إلى الغابة وفى الغابة يعيش حياة الإنسان الأول . يأكل من صيد البحر ويتعرف براعية تركمانية تدعى شكيبة يمارس معها الحب . وتصور الرواية علاقة الحب تصويرًا جديداً فى الرواية العربية التى دأبت على الكتابة المألوفة وفقاً للأعراف والتقاليد . وهكذا تطرق رواية (الياطر) منطقة جديدة من المناطق البكر والكثيرة التى لم تطرقها الرواية العربية بعد .

يعتمد بناء الرواية على أسلوب السرد التقليدى ، بلسان بطلها الصياد زكريا المرسنلى ، مع الارتداد إلى الماضى والاسترجاعات ، وبلغ تيار الوعى والمونولوج الداخلى دور البديل عن الحوار المتقلص فى الرواية ، كما أن الرمز فى الرواية بسيط وشفاف . فالحوت « العدوان » الذى يهاجم الموانئ والشواطئ ويخربها ، ويحجم الرجال عن مقاومته ، استطاع زكريا المرسنلى ، هذا الصياد البسيط ، أن يقهره . عندما قاد الرجال وهاجمه مسلحًا بعقله وقوته وشجاعته معًا .

قدم حنا زكريا المرسنلى الصياد الفقير القوى الشجاع الماهر فى شكل مميز وشخصية منفردة وجديدة فى الأدب العربى الحديث . حقا إنه يخاطب سمكته « الانتياسة » الكبيرة كما يخاطب امرأة ، كما كان يفعل « سنتياجو » بطل « هيمنجواى » مع سمكته الكبيرة فى « العجوز والبحر » . وإنه ليتحدى الحوت الضخم الذى يهدد الميناء ويفر منه الجميع كما يفعل « آخاب » بطل هرمان ملفل فى « موبى ديك » ولكنه يتفوق عليهما معًا بإحرازه للنصر الحاسم على السمكة الكبيرة والحوت الضخم وبتجربته الفريدة فى الغابة .

كان الحوت محاصراً فى دائرة الميناء كالوحش الهائل الهائج ، يضرب المياه بعنف ويحطم السفن ويفتت الصخر . فقفز عليه زكريا ، وربطه بالحبال والسلاسل الحديدية . ورقص فوقه متحديًا رعب الجميع وخوفهم ، ومصمًا على الانتصار على الحوت أو الموت قائلا : « هذه هى سمكتك الكبيرة التى تحلم بها يا زكريا ، انزل إليها .. اربطها بحبال حديدية ، أوقف وأنت تصارعها .. مت كما يليق بصياد حقيق ، أو اربطها وأخرجها »[١١] وجر الحوت إلى الشاطئ وأراد أن يتمتع بانتصاره الإنسانى غير أن التجار استعجلوا استغلال لحم الحوت وزيته وعظامه . ولكنه أراد الاحتفاظ به أطول مدة ممكنة ، لأن فى انتصاره عليه فى البحر تعويض عن مهانته فى البر . وذهب إلى حانة اليونانى زخريادس منتشيًا بانتصاره طالبًا النبيذ خمر النصر . فرفض زخريادس بيعه النبيذ مقابل النقود ، مشترطًا أن يحضر إليه زكريا بطرخ السمكة ، وأن يدعه يشرب كل ما يريد من نبيذه . وبعد أن رقص حول الحوت وشرب مع الصيادين ، أشعلوا النار ، وأخرج بخنجره كل ما فى جوف الحوت لزخريادس ، الذى نال مع البطارخ مجوهرات ذهبية وماسية ابتلعها الحوت . وحرضه الصيادون على زخريادس ليأخذ منه بعض حقه ، فلما رفض زخريادس دفعوه إلى قتله ، فقتله وفر إلى البحر ثم إلى الغابة ، فالبحر هو خلاصه وفى الطبيعة انعتاقه الروحى .

وكما قدمت روايته « الشراع والعاصفة » شخصية بطلها المعلم البحار محمد الطروسى كذلك يفعل حنا مينه فى « الياطر » بإبداعه شخصية الصياد زكريا المرسنلى . شخصية فذة تجمع بين خبرات الأديب الواقعى ورومانسية الفنان وخياله المبدع . شخصية تواقة إلى الانطلاق فى البحر بحارًا فوق سفينة ، أو الحياة فى مياهه حتى ليتمنى أن يتحول إلى كلب بحر أو سمكة ليعيش فى أعماق البحر . فهل هى عودة إلى دعوة الهروب من المدينة الآلية المكتظة الظالمة التى عرفها أدب

(١١) حنا مينه ، الياطر ، ص ١٣ .

القرن الثامن عشر على يد روسو ، ربما مع إضافات كثيرة يزود بها حنامينه شخصيته البطولية ، ومنحها المبرر المقنع لهذا التطور الطبيعى ، الذى حدا ببطله إلى التطلع للانعتاق من وحدته وغربته وخطيئته الأرضية ، بعد أن قتل زخريادس صاحب الحانة اليونانى المستغل بدون قصد وهو مخمور .

فالبحر هو الملجأ الأخير . وهو يغمر نفسه فى مياهه بعد فراره إلى الغابة عند سماعه لأول إنذار من مطارديه أو نباح كلب . وفى الغابة تفتحت طاقاته الإنسانية فعاش على حافتها . يصطاد الأسماك ويأكلها وتسبح روحه فى زرقة البحر الصافية . ففيها خلاصه الروحى « الأزرق سطح منبسط ، يمتد ، يغمق ، وعند الأفق يوشحه بياض قطنى ، تنفست ملء رئتى ، عيناى أتاحتا للمدى المترامى بعد ذلك الاصطدام بجدران الغابة . خيل إلى أننى أخرج من بئر جدرانه من طحالب خضراء . وددت لو أتدحرج كحجر حتى أبلع الماء وأغوص فيه .. » . وبأسماك البحر وثق زكريا علاقته بالراعية التركمانية « شكيبة » . وعاش معها أجمل قصة حب ، بين البحر والغابة والطبيعة البكر .

غير أن حوتًا جديدًا يظهر فى البحر . يفر منه الصيادون ، الضعفاء بلا رجولة ، كما يصفهم زكريا المرسنلى فقد رأى فى عيونهم الضعف والخوف . أما هو البطل الفذ المقاوم المقاتل ، فقد صمم على مقاومة الحوت ومقاتلته ، متحديًا ضعف الرجال قائدًا إياهم للانتصار على الحوت المعتدى ، مؤكدًا أن العدوان يأتى ويذهب ولكن المدينة باقية ، والعدوان يوقف بتكاتف الرجال ومقاومتهم : « أنا أعرف مدينتى . أعرف بحارتها وصياديها ورجالها . أعرف أن البحر قذفها بحيتانه ، وغزاها بأمواجه ، وفاض عليها بمياهه ، وطغى وبغى ، وأغرق كثيرًا من مراكبها وأهلها ، وزعزع كثيرًا من بيوتها ، واقتلع أشجارها ، وهاجت عواصفه ، وأمطرت طوال ليال وأيام سماؤها ، لكن مدينتى ظلت هناك . ثم تراجع البحر . ارتدت حيتانه ، وولت عواصفه وأشرقت الشمس ونبتت الأشجار . عجز البحر عن ابتلاع المدينة . الحيتان تبتلع الأسماك لا الصخور ، ومعدة البحر الكبيرة تزدرد السفن لا القلاع . كانت بيوتنا قلاعًا . وكنا نحن حراس هذه القلاع . كنا رجالا ، فماذا حدث الآن ؟ مات الرجال ؟ كل الرجال ؟ محال ؟ .. صرخت : محال ما مات الرجال .. لا يمكن أن يموت الرجال »[١٢] .

---

(١٢) حنا مينه ، الباطر ، ص ٢٩٢ .

بهذا المفهوم الواقعى والرمزى للبحر وعالمه ورجاله ، يختتم حنا مينه أحدث رواياته البحرية « الياطر » مؤكدًا ريادته لأدب البحر الروائى العربى .

٢ – السفينة والبحر :

« البحر جسر الخلاص . البحر الطرى الناعم ، الأشيب ، العطوف . وقد عاد البحر اليوم إلى العنفوان . لُطم موجه إيقاعٌ عنيف للعصارة التى تقذف فى وجه السماء بالزهر والشفاه العريضة والأذرع الممتدة كالشراك اللذيذة . البحر خلاص جديد . إلى الغرب ! إلى جزر العقيق ! إلى الشاطئ الذى انبثقت عليه ربة الحب من زبد البحر ونفث النسيم .. »[١٣] بهذه الكلمات الشعرية الجميلة يستهل جبرا إبراهيم جبرا – الروائى والناقد الفلسطينى ، روايته البحرية « السفينة » (١٩٧٠) قمة أعماله الروائية الهامة فى حركة الرواية العربية الحديثة بعد روايتيه « صراخ فى ليل طويل » (١٩٥٥) و « صيادون فى شارع ضيق » (المكتوبة بالإنجليزية) (١٩٦٠) – مكثفًا بكلماته معنى روايته « السفينة » ومغزاها رؤيته للبحر وعالمه الذى لا يمثل خلفية الرواية أو عنصرًا ثانويًا فيها بل إنه موجود بكل واقعه وزخمه فى صميم النسيج الفنى والواقعى للشخصيات . يشكل الكثير من أفكارها ورؤاها ، ويسهم فى ترابط أحداثها وتعقد العلاقات المتشابكة بين شخصيات الرواية الكثيرة الهاربة إلى البحر ، جسر الخلاص ، فوق سفينة سياحية يونانية تشق مياه البحر الأبيض المتوسط وتطوف بموانيه متهادية ببطء يسمح بالتعايش مع البحر وعالمه .

لذا جاءت رواية « السفينة » كتنويعات على لحن البحر . فما من علاقة تحدث فوق السفينة إلا وكان البحر شاهدها وصانعها . وما من حوار بين اثنين من الشخصيات إلا وكان البحر ثالثهما ، ومحور حديثهما ، بل إن البحر يشكل رؤيا شمولية للحياة ، فهو باعث الفكر والتأمل وجامع شمل المحبين والهاربين والحالمين والمتمردين . فالبحر حاضر وماثل وموجود فى تفاصيل الرواية الدقيقة وفى حوارها وأسلوبها ، فى السرد والمونولوج الداخلى للشخصيات ، فى العرض الظاهر للأحداث والشخصيات وعالم البحر فوق السفينة وفى المغزى العميق الذى تومئ إليه الرواية .

وتجسد « السفينة » هموم الشخصيات اللاجئة المستسلمة للبحر فى تجمع مكثف لعالم البر

(١٣) جبرا إبراهيم جبرا ، السفينة ، ص ٩ .

الحافل بالصراعات والحب والإخفاق . كعصام السلمان ، الهارب من حبه الفاشل « للمى » ومن زحام الناس والمارة و ... جريمة ثأر قديمة ارتكبها أبوها مع عم حبيبته « لمى » ومن رعبه من الثورة ، يلجأ إلى البحر ليخفى وجهه واسمه فيجد « لمى » مع زوجها لصق قمرته يتطارحان الغرام والموج ثالثهم . بل إن أحداث الرواية وشخصيات الرواية اجتمعت كلها فى نسيج روائى ماهر بسبب رغبة عصام السلمان فى تمضية بضعة أيام على البحر . فمن هذه الرغبة تتابعت الأحداث وتعقدت العلاقات بين الشخصيات ونمت وتطورت تطورًا فنيًا مقنعًا ومبررًا . ومجال الرؤية فى الرواية واسع كاتساع البحر ، يشمل البحر والأمواج والقمر والسفينة وركابها وإيقاع آلاتها ، الحب والسياسة ، الجنس والفلسفة ، الواقع والأسطورة فى بناء روائى ثرى يشى بشاعرية الروائى وخبرته الواسعة بموضوعه وعالمه الروائى الذى يماثل الحياة فى اتساعها وشموليتها .

فى « السفينة » تتحدث الشخصيات عن البحر تغرق فيه همومها ومخاوفها وأحلامها وتطلعاتها ، فالبحر خلاص وداء وسحر يقوى العلاقات بين البشر ويزيل الحواجز أو يخفف منها . وتخرج الشخصيات من قمرات السفينة إلى البحر كالخروج إلى الفردوس ، حيث تتراقص الأمواج والشخصيات على أنغام الموسيقى ، وهو خروج فيه كل معانى الدعة والاستسلام والخلاص من المتاعب والفلسفات والهموم .

نجد ذلك فى التعرف السريع بين شخصيتى عصام وأميليا فوق سطح السفينة ، فعندما يستعصى النوم على « عصام السلمان » يصعد إلى سطح السفينة ، ويتعرف إلى الإيطالية « أميليا » ويدور بينهما حوار حول عشق البحر على النحو التالى :

« نحن محظوظون ، قالت بالإنكليزية . فالبحر بين بيروت والإسكندرية معروف بالاضطراب عادة . أترى ما أهدأه » ؟ .

قلت : نعم : نحن محظوظون ؟

– أحب البحر . أتحب البحر ؟

– نعم . أحب البحر .

– ولكن ما هذه إلا سفرتى الثانية بحرًا .

– إلى الاسكندرية ؟

– إلى جنوى . وأنت ؟

– إلى مرسيليا ، ثم باريس ، فلندن .

– أنت محظوظ !

فقلت : اعذريني إن سألتك : ألم تستطيعي النوم ؟

فضحكت : إنني أعشق صوت الموج !

كانت هذه المرأة أميليا فريتزى . لقد بقينا نتحدث على هذا النحو ساعة أو أكثر » .[١٤]

وطوال الرواية تتحدث أميليا عن عشقها للبحر .

ويصف وديع عساف ، المتمرد الهارب بجرحه الفلسطيني من دنيا الكذب التى كونت المأساة الفلسطينية ، الذى ينطلق فى كل رؤاه وأحاديثه من جرحه الفلسطيني وأرضه الفلسطينية المغتصبة ، يصف وديع الحياة بأنها « بعيدة عنك ، مع ذلك الموج فى أقصى الأفق ، فى الجزيرة التى تراها فى بحر أحلامك » . فمن البحر وأمواجه يصوغ وديع عساف نظريته العبثية فى الحياة : « الكل زائل سوى هذه الأمواج . لا مجازًا ، بل فيزيائيًا أيضاً . والبحر عنده هو بحر فلسطيني وهو العلاج المخفف من غربته فى هذا العالم ، يقول : « أنا أحب البحر المتوسط وأركب السفينة فيه ، لأنه بحر فلسطيني ، بحر يافا وحيفا ، وبحر هضاب القدس الغربية وقراها . فأنت إذا صعدت هضاب القدس ونظرت غربًا ، لن تعرف أين تنتهى الأرض وأين يبدأ البحر وأين يلتقى الاثنان بالسماء .. فهى ثلاثتها متداخلة متمازجة ومتماثلة . هذه الزرقة هى الشيء الوحيد الذى يلطف من غربتى »[١٥] .

ونطالع فى رواية « السفينة » لوحات رائعة للبحر والأمواج وانطلاق أسراب طيور النورس البيضاء والقمر والنجوم ومياه البحر الفضية ، وصداقات البحر السريعة واعترافاته وغرامياته ، وتشبيهات الروائى الجميلة التى تحيل دخان السفينة إلى جنى عملاق والرقص والحب والحياة الجميلة فوق مياه البحر . حياة مفعمة بعبق البحر ورائحته تتصاعد إلى السفينة المترفة فى طوافها البطيء الهادئ بموانئ البحر الأبيض المتوسط تطلق عنان الأفكار للتأمل والراحة والاستجمام . وفوق مقدمة السفينة تتجمع شخصيات الرواية ، وترقب كيف تشق السفينة المياه الزرقاء الصافية ، فتفر الأسماك رعبا من حركتها وتدور الأحاديث حول البحر والأسماك والدلافين ، لتضفى أفكارًا ورؤى حسية وصوفية وميتافيزيقية على البحر وعالمه .

---

(١٤) المصدر السابق ، ص ١٨ .

(١٥) المصدر السابق ، ص ٢٧ .

يتحدث وديع عساف عن أسفاره إلى أوربا بالبحر والطائرة مفضلا البحر . « لا لأن البحر هو دنيا وحسب ، بل لأن السفينة تشعرك جسديًّا بانسيابك خلال الزمان والمكان معًا » . ولأن البحر يوحي بالمغامرة . بل إن الانزلاق إلى عرض البحر عند وديع عساف أشبه بانطلاق النفس فى رحاب الفضاء أو الدخول إلى الجنة ، ويذكره بحلم العودة عندما تنداح ذكرياته عبر تيار الوعى مصورًا وقائع المأساة الفلسطينية وضياع القدس . وعندما يقفز رجل إلى البحر قاصدًا الانتحار ، يفكر وديع عساف بأن هذا هو الخلاص بالأمواج ، عندما تسأله « لمى » : « أين يهرب الإنسان ؟ » يرد إلى الموج » . بل إنه يرى أن البحر الأبيض المتوسط يفرض على سكانه التشبث بالحياة لذا هم لا ينتحرون .

فالتداعى عبر تيار الوعى هو الأداة الفنية المسيطرة فى الرواية التى تشكل موضوعها ومعمارها الفنى ، وعبرها تنساب الأحداث والذكريات وتتجاور وتتداخل الأزمنة والأمكنة والشخصيات وتضىء بنورها الكاشف تاريخ الشخصيات وعالمها الخاص والعام ، محدثة كثافة وعمقاً وثراءً لرواية السفينة مما حقق للرواية اتساعاً وشمولية باتساع الحياة والكون والثقافة والفن والسياسة ، فجعلتها من الروايات العربية القليلة التى تستخدم البناء الروائى بكل معطياته وشموليته . ولعل أكثر ما ضاعف من ثراء رواية « السفينة » وشموليتها ، معمارها الفنى وثقافة مؤلفها جبرا إبراهيم جبرا الناقد والفنان ، وجمعها بين تيار الوعى وتبادل الشخصيات القص والحديث ، مما أضفى أضواءً متعددة على الأحداث والشخصيات وادخر الكثير من المفاجآت التى تقفز مع كل تناول جديد ورؤية جديدة لشخصيات الرواية ، كما أن أسلوب القطع والتداخل أتاح للروائى الاغتراف من ماضى الشخصيات وتطويرها ونموها . وهذا هو ما ميز الرواية بالحداثة الفنية وخلصها من عيوب الرواية التقليدية . فلا وجود فى « السفينة » للراوى التقليدى الثرثار المطلع على كل شىء أو للزمن المسلسل أو الاستطراد والحشو أو التعليقات المباشرة . بل إن الروائى ، كما يحدث فى الرواية العالمية الحديثة ، لم يظهر بشكل مباشر ، ربما تخفى حول شخصياته وأقربها إليه شخصية الفلسطينى وديع عساف واكتفى بتقديم المشاهد والشخصيات على لسان شخصياته .

وتتجمع كل الشخصيات والفلسفات والذكريات فوق البحر الذى يتسلل إلى أعماقها ، ويشكل رؤاها وأحلامها . وإذا كان ركاب السفينة يهربون من مقدمتها ومؤخرتها خوفاً من ارتفاعها وهبوطها ، فإن شخصيات الرواية تألف البحر وتحبه ولا تخشى الدوار ، لأنها تعشق

البحر وتتعمقه كما يقول وديع عساف ، الشخصية المحورية المؤثرة فى الرواية : « غير أن جماعتنا ما عادت تخشى الدوار – لقد كان البحر ، فى الواقع ، رفيقًا بنا معظم تلك الأيام الحزيرانية الصاحية . ولما التقينا تلك الليلة من جديد كان فى البحر هدوء يكاد يكون رهيبًا غير معقول ، كأنه صفحة من زيت ، تتألق عليه مونجات فوسفورية كنثار من الفضة . وطلع علينا قمر متأخر ، لبريقه اللجينى المخضوض فعل الجنون فى النفس . ما الذى يريد هذا البحر منا ، بهذه الروعة الهائلة ، بهذا الجمال الغامض الظالم ؟ »[١٦] هكذا ينفذ البحر بروعته وجماله وغموضه إلى داخل الشخصيات يسحرها ويستخرج الأسئلة الجوهرية من روحها وضميرها ويهز مشاعرها هزا مضاعفًا ، فالبحر هو الفاعل الخالق والشاهد والمؤثر فى كل الشخصيات والأحداث ، فى الحياة والموت . يقول عصام السلمان « لو خطر لوديع أن يقول : اقفز فى البحر ، . هكذا كنت أشعر كلما جعلنا نتحدث ، على ظهر السفينة أو فى القمرات » . وقال أيضاً : « ولو قال لى : اقفز فى البحر ، لقفزت ، لأننى كنت بذلك سأنجو من أشياء كثيرة . ولكننى – وهل لى أن أنكر ذلك – كنت أيضًا فى بحر من النشوة » .

ويرجع عصام السلمان قوة التأثير واشتعال العواطف إلى البحر قائلا : « وقد تأكد لى أن للبحر فعله المساعد فى مثل هذه الأمور ، كما فى أمورنا مع النساء . فالمشاهد لا تتغير إلا عندما ننزل إلى الموانئ ، وإذ تعتاد العين رؤية مستويات السفينة وسطوحها ، وزرقة الموج والسماء ، وتعتاد الأذن هدير البحر ودمدمة الباخرة ، مع ما فى نفس المسافرين من تهيؤ لكل ما هو جديد ومثير ، يشتد الحس بتلك الأشياء التى تبدو فى تغير مستمر : أشكال الناس ، أجسامهم ، وجوههم .. ثم أصواتهم : ما يقولون ، وكيف يقولونه . يصبح السمع حادا ، وتتخذ الكلمات وضوحًا ومفعولا غير عاديين . يسمع المرء كل ما يقال فيلتذ به أو ينفعل له . حتى أقل الغضب ، أو أقل العاطفة ، يبدو مهما ، ويصعب التغاضى عنه . وإذا جاءت الحجج مشحونة بمثل حرارة وديع وصوته وثقته ، تغلغلت فى الذهن وضربت جذوراً فيه »[١٧] فعصام السلطان يعشق البحر ويود ألا تنتهى الرحلة البحرية فوق السفينة . وتتحدد علاقات الشخصيات بقربها أو بعدها بحبها أو نفورها من البحر ، « فالدكتور فالح » زوج « لمى » يكره الرحلة البحرية ويتطلع إلى انتهائها ، وهو الذى أسقط حالته النفسية وغيرته على

(١٦) المصدر السابق ، ص ٩٧ و ٩٨ .

(١٧) المصدر السابق ، ص ١٠٦ .

زوجته ، على البحر وعالمه ، حين تساءل فى حوار بينه وبين عصام :

– متى ستنتهى هذه السفرة ؟

– أتريد الحق ؟ أنا لا أريدها أن تنتهى .

– أما أنا فلا أتحمل البحر كثيرًا .

فقلت فى شىء من اللؤم : أتصاب بالدوار ؟

– الدوار ؟ أبدا ، إنما أنا كلوستر وفوبيك . لا أتحمل الانغلاق فى سفينة أو غير سفينة .

– وهذا البحر كله حولك !

– وأنتم كلكم حولى ! »[١٨] .

وكالراكب الفرنسى الذى أصر على اصطحاب جثمان زوجته فى تابوتها فوق البحر على السفينة لأنه شعر بأنها يجب أن ترافقه بحرًا ، كما كانت ترافقه دائمًا بالبحر وليس بالطائرة .

أو كما تقول أميليا منتشية « الشمس رائعة ، البحر رائع ، وأميليا الرائعة تموت جوعاً ! » بل إن « الدكتور فالح » زوج « لمى » المتحرر يطرح فى أوراقه الأخيرة سؤالا محيراً عن البحر : « لماذا كتب على أن أركب الأسفار وأجابه البحار لأشعر بخلجات القلب ، برعشات الجنس ؟ » وكتب أيضاً فى رسالته الأخيرة إلى زوجته لمى : « السفينة سجن . قفص . البحر وحش بغيض » .

وكثيرًا ما تقطع الشخصيات أحاديثها لتشير إلى البحر وأمواجه وجماله أو أن تدخل البحر فى أحاديثها : « كان الصباح فى عنفوانه ، وحركة الركاب فى الباخرة على أشدها ، كأن الشمس الحارة تطلق طاقاتهم الكامنة » . وهكذا فالبحر يطلق كل الطاقات والمخاوف والأحلام لدى شخصيات الرواية ، ويجعلهم يكشفون عن خفاياهم وأدق همومهم وتطلعاتهم . وإليه يحدقون ببصر وبصيرة نافذين إلى ما وراء البحر والأفق إلى جوهر الكون وكنه العالم . والبحر ممحاة لكل الجروح والهموم والذكريات : « عن كل أمل تخلوا ، أيها الداخلون هنا . لا ! على السفينة كان يجب أن يكتب بأحرف من شمس وريح : عن كل ذكرى تخلوا ، أيها الداخلون هنا . كأن البحر لراكبيه ممحاة هائلة ستمحو أثبت أنواع الحبر ، بل حتى الصور المحفورة حفر الجروح »[١٩]. بل إن اضطراب البحر يؤذن باضطراب بعض الشخصيات وينعكس عليهم كما

---

(١٨) المصدر السابق ، ص ١٠٩ و ١١٠ .

(١٩) المصدر السابق ، ص ١٤٨ .

حدث مع شخصية محمود الذى أصيب بنوبة عصبية بسبب مخاوف سياسية ، غير أن القبطان قرر بلغة الخبير بالبحر « حالما يهدأ البحر ثانية ، ستجدون أن مريضنا قد تعافى » .

ولحظة هياج البحر هى لحظة الميلاد الجديد للإنسان خالياً من كل هموم الماضى التى تغرق فى الحاضر وكله توق لمستقبل . فعبر المعاناة الصعبة مع العاصفة وتلوى الأمعاء وتقيؤ البطون لا يبقى سوى الحاضر والمستقبل : « لقد أضحى المستقبل لكل مسافر أهم من الماضى » ، فـ « هياج البحر تجربة رهيبة من تجارب النسيان : إقحام فى اللحظة الراهنة وقد اضمحل كل ما حولها ، تتحول المعدة فيها إلى حضور بغيض شكس ، ينسحب له الدم من الرأس ويفرض على الذهن غيبوبة يعيها فى الوقت نفسه وعياً حاداً كريهًا . غير أن هناك من يتغلب على البحر : تراه يمشى منتصبًا – فى الواقع مائلا – والسفينة تخفض رأسها وترفع ذيلها ، لترفع رأسها وتخفض ذيلها والموج الأبيض يخبط خبطًا عاتيًا وينفجر كالحمم على الجانبين ، يضرب الوجه مهما توقاه برذاذ حاد كالإبر ، ويتراجع مخلفًا على أخشاب السفينة مياهًا تنساب صفراء كالحة فقاقيعها فى غليان ماكر »[٢٠] .

ويفرد جبرا إبراهيم جبرا صفحات كثيرة للحديث عن هياج البحر وتأثيره فى السفينة وركابها ، من شخصيات الرواية المصابين بدوار البحر والمترنحين بفعل ثورة البحر الصاخبة المؤرجحة للسفينة ولكل ما عليها من بشر وأشياء . ولعل أجمل فصول الرواية تلك التى خصصها الروائى لتصوير أثر دوار البحر وهياجه فى شخصيتى الحبيبين عصام السلمان « ولى » وعندما يقتحم عصام قمرتها فى السفينة يقول عصام : « يا للمهزلة . لا تتاح الفرصة ، إلا وكلانا أشبه بخرقة مبلولة » . ومع ذلك فإنه يهتف عندما يجدها مستلقية على سريرها فى منامتها « لو تعرفين ما أجملك ؟ » فتؤجل اللقاء إلى أن يهدأ البحر . وهنا يتحول البحر إلى خصم حقود لعصام وحبه ، كما يصفه قائلا : « من النافذة رأيت البحر يهبط فى خط مقعر هائل ، ثم ينتفخ ويتعاظم ليصدم السفينة بثقله كله ، راشقا زبده الفائر على الزجاج ، مطوحًا بها بحقد لئيم » .

السفينة رواية يحق أن توصف بأنها كتاب الحياة الوحيد المشرق ، كما يصف د. هـ . لورنس الرواية ، فهى تستوعب الحياة بأوسع معانيها واقعيًا وروحيًا ، البحر والطبيعة وهموم

---

(٢٠) المصدر السابق ، ص ١٤٨ .

الإنسان وتطلعاته ومتعه المادية والروحية . غير أن أهم ما قدمته « السفينة » هو دنيا البحر التى اتسعت لكل هموم البشر وأبرزها هم الجرح الفلسطينى .

٣ – صادق النيهوم والبحر :

صادق النيهوم روائى وناقد وشاعر ليبى ومدرس بجامعة هلسنكى الفنلندية ، تتميز كتاباته بأسلوب فلسفى ساخر . يدعو إلى التقدم الحضارى وتجاوز كل الأعراف والتقاليد المتخلفة ، ويقدم التراث بمنظور علمى ونظرة عصرية . أهم أعماله « الرمز فى القرآن » وروايته البحرية «من مكة إلى هنا» ، التى ترجمت إلى اللغتين الفنلندية والألمانية ، وتحولت إلى مسلسلة تليفزيونية على الشاشة الفنلندية . وذلك بالإضافة إلى عشرات الدراسات والمقالات النقدية والفلسفية . وتعد روايته البحرية « من مكة إلى هنا » من أنضج الروايات الليبية القليلة بسبب سيطرة القصة القصيرة على الإنتاج الأدبى فى ليبيا . ومع أنه يعيش معظم شهور السنة فى أوربا إلا أنه يواظب على كتابة مقالاته الأدبية وإبداعاته الفنية والفكرية ، حتى أنه يوصف بأنه « الكاتب الوحيد الذى جعل القراءة عادة يومية ، لجمهور جديد لم يألف صحبة الكلمة المطبوعة ، وجعل هذا الجمهور يتعلم أن يناقش ما يقرأ ، وأن يتابع ما يكتب » . كما ذكرت مجلة « جيل ورسالة »[٢١] (الليبية) فى عددها الخاص عنه ، وقالت عنه أيضًا : « إن صادق النيهوم برغم أنه يعيش بعيدًا عنا إلا أنه أكثر قربًا منا إلى أنفسنا . وقد تبدو هذه معادلة غريبة بيد أنها لن تكون كذلك إذا اتفقنا أن الرؤية من بعد ، تكون عادة أكثر شمولا » . وقال عنه الناقد الليبى يوسف القويرى إنه « يكتب من خلال نظرة أوربية مطلقة » .

البحر عند النيهوم مجمع للأساطير ، وطريق يعبره رجل البحر للانتصار على الأساطير والخرافة ، والخلاص من قيود التقاليد والأعراف المعوقة للتقدم الإنسانى وتحرير الوطن والمواطن .

تقع أحداث رواية « من مكة إلى هنا » فى عصر الاحتلال الإيطالى لليبيا ، وتتحرك فى قرية سوسة وفوق مياه خليج سوسة . وبطلها صياد زنجى عجوز يدعى مسعود الطبال ، يفتتح الرواية بمحاورة مع مزارع إيطالى حول شراء محرك قديم لقاربه يزوده بقوة إضافية تساعده على سرعة الإبحار إلى مسافات أبعد حتى يصل إلى الجزيرة ويصطاد السلاحف البحرية من

(٢١) مجلة « جيل ورسالة » ، العدد الأول – السنة الثامنة (١٩٧٢) .

كهوفها . غير أن المزارع الإيطالى يرفض فكرة اصطياد السلاحف البحرية وأكل لحمها ، وتأكيدًا لفكرة شائعة متخلفة عند الصيادين بقدسية السلاحف البحرية وسحرها . ويحتج الصياد الزنجى مسعود الطبال ضد دفاع الصيادين عن السلاحف البحرية ، ويصمم على نيلها حتى لو لم يحصل على محرك . معتمدًا على قوته وإرادته ومهارته مجدفًا بمجدافيه . متحديا قوى الطبيعة والبحر والتخلف ، الذى يروجه « فق » القرية ومزاعمه من أن السلاحف البحرية حوريات مسحورة . ويشن « الفقى » حربًا مقدسة ضده لتحديه للخرافة . وعبر الصياد عن رأيه بقوله « الفقهاء أعداء الصيادين ، أعنى أستغفر الله إذا كان ذنبًا حقيقيًا ، ولكن « الفقى » يقول لك : سلاحف البحر حوريات مسحورة لابد أنه يناصبك العداء . أجل أنا عبد جاهل لا يجوز أن يخوض فى أقوال العلماء ، لكن السلحفاة ليست حورية مسحورة . إنها مجرد (فكرونة) كبيرة الحجم وقبيحة إلى حد لا يطاق وقد قتلت منها بنفسى ما يربو على المائة دون أن يسخطنى الله إلى حجر »[٢٢] . بل لقد أرجع الصياد الزنجى حادثة الشهر الماضى ، التى أكلت فيها السلحفاة صيادها الصغير ، إلى جهله بأصول مهنته التى تقضى بعدم صيد السلاحف البحرية فى المياه الضحلة لأنها تمكنها من الانقلاب على وجهها وانتهاز فرصة ارتطام القارب بالصخور الناتئة للانقضاض على الصياد الغض وقتله .

وتروى الرواية بأسلوب السرد المشوق عبر الاسترجاعات والارتدادات للماضى ، الصراع بين وعى الصياد الزنجى بحقيقة ما حدث كخطأ مهنى من الصياد الصغير ، وبين ما يشيعه فق القرية من مزاعم حول الأسياد البحرية التى جرت جثة الصياد القتيل إلى كهوف الجزيرة والتى لن تعود إلا باستعطاف الأسياد وتلاوة الكتب الدينية . ويصمم الصياد العجوز على أنه رأى جثته طافية فوق مياه البحر فى اتجاه الكهوف ، وأنه ليس فى المسألة أسياد بحرية أو حوريات مسحورة ، بل إنها تتطلب التعاون الإنسانى بين جميع الصيادين للبحث عن الجثة فى مياه البحر . ومع ذلك يعترف الصياد بينه وبين نفسه بأنه رجل خائف لذا خشى أن يلمس جثة الصبى . وحتى عندما غطس مسعود الطبال وأحضر قطعة من قميص الصياد الصغير القتيل رفض « الفقى » الأخذ بأقواله وشهادته وصمم على أنه لم يزل موجودًا فى كهف « سيدته الجريحة » ، يعنى السلحفاة البحرية .

وبينما يتحدى الصياد الزنجى مزاعم « الفقى » وأساطيره المختلفة جامعًا شجاعته ، للإبحار مع

(٢٢) صادق النيهوم ، من مكة إلى هنا ، ص ٦ .

الصيادين بحثًا عن الجثة المختفية ، يذبح « الفق » كبشًا ترضية للسلحفاة المسحورة ، ويعثر الصيادون على الجثة بالفعل . وهكذا يأخذ « الفق » فى مهاجمة الصياد الزنجى متهمًا إياه بالسكر والأكل على موائد الإيطاليين ومن لحوم الخنزير وشن عليه حربًا مقدسة بغية طرده من قرية سوسة وتحرش به مع أقاربه المسلحين بالعصى . ولكن الصياد الزنجى فضل الصمت وانسحب وحيدًا غريبًا ، ودفن رأسه بجوار زوجته مغمغماً لنفسه « مسعود الطبال نذير من الله بالسوء .. مسعود الطبال عبد وحيد مغترب فى سوسة » . فقد كان بريئًا من اتهامات « الفق » ، وكان « الفق » هو الذى يبيع أرضه للإيطاليين ويتعاون معهم ، ولكن دواعى الصراع الذى يفجره الروائى صادق النيهوم بين التخلف والتقدم ، بين الجمود العقلى والوعى الإنسانى ، حتمت تقديم وجهتى النظر كاملتين عند كل من طرفى الصراع .

هذا هو التطور الطبيعى المقنع والمبرر والممهد لأحداث رواية « من مكة إلى هنا » المعبرة عن معارك الصياد الزنجى العجوز الوحيد مسعود الطبال وطموحاته وآماله الواقعية والروحية للخلاص من غربته ووحدته ومن شر التخلف ، الذى دفع بالفق إلى الذهاب للمزارع الإيطالى وتحريضه على رفض بيع محركه القديم للصياد الزنجى ، حتى لا يتمكن الأخير من اصطياد السلاحف البحرية وتحطيم خرافاته التى ينتفع من ورائها . من هنا جاء التبرير المقنع لتصميم بطل الرواية مسعود الطبال ، ذلك الصياد العجوز الفقير ، على تحدى الخرافة واختراق الحصار الذى يفرضه عليه « الفق » باستعمال وقته وجرأته ومجدافيه فى الإبحار بعيدًا لاصطياد السلاحف البحرية وبيعها لصاحبة المطعم الإيطالية قائلا « إننى لا أريد محركاً من أحد ، وسوف يظل بوسعى أن أصل إلى الجزيرة بمجدافى » . وذلك بالرغم من بيع الصياد « لتكليلة » زوجته الذهبية الوحيدة ، حتى يتمكن من شراء المحرك ، بعد معركة خاضها مع زوجته الزنجية العجوز ، التى تتعرف إليها وإلى حبه لها وعطفه عليها عبر تيار الوعى ومن خلال التعبير بالصور عن الحب المتبادل بين الصياد الفقير وزوجته ، فإنه يداعبها كل ليلة ويربت عليها بحنان مغذيا حلمها الدائم ببيع الأرض والكوخ والذهاب إلى مكة للحج ، ففى هذا الحلم يتمثل خلاصها الحقيقى من الغربة والوحدة والعذاب المادى والروحى ، فيتمنى هو البقاء هناك أما هى فترغب فى العودة من مكة إلى بنغازى بعد أن يرحل الإيطاليون عنها . وحتى تلك العلاقة الودية النبيلة بين الصياد وزوجته حاول « الفق » أن يعكرها أيضًا ، بالدس لدى زوجته زاعمًا بأن زوجها انتزع تكليلتها ليهبها لصديقته الرومية (من روما) . وعندما يرد الصياد لزوجته ثمن حليها ، تعود

مذكرة إياه بالأعراف والتقاليد التى نشئوا عليها من اعتبار السلاحف البحرية مخلوقات مريبة تؤذى من يقترب منها أو يحاول إيذاءها . ويكيد له لدى المزارع الإيطالى ليحول بينه وبين شراء قاربه السريع ولدى زوجة الصياد الزنجى ليشككها فى حب زوجها لها ويمنع عنه حليتها الوحيدة حتى لا يسترى بثمنها القارب أيضاً .

هكذا جعل الروائى بطله الصياد محاصرًا بالخرافة من كل جانب . وهو حصار مادى وروحى يهدده فى رزقه وحياته وأسرته وكوخه الفقير ومصيره . ومن هنا كان تصدى الصياد الزنجى للسلاحف البحرية ، بتجاوز حدود الصراع الواقعى بين الإنسان وقوى البحر ، إلى الصراع الروحى والعقلى بين قوى التقدم وقوى التخلف . ووفق الروائى فى الإيماء من خلال بطله الصياد ونماذج حسية لحياته وصراعاته البحرية والبرية ، فجاءت القضية قضية حياة أو موت وأكل عيش وليست حوراً نظريًا أو ترفًا ذِهْنِيًّا . فيقول الصياد : « ماذا بوسعى أن أفعل ما دمت لا أعرف حرفة أخرى سوى صيد السلاحف . إننى أحتاج إلى مُطارَدتِها لِكىْ أكسب عيشى ، ولو كان سيدى داود نفسه سلحفاة ، وكانت الرومية مستعدة لشرائه بثلاثة فرنكات لذهبت لإحضاره إليها مقلوبًا على ظهره »[٢٣] هذه هى القضية ، فهنا المغزى العميق من وراء صراع الصياد مع سلاحفه البحرية ، فالخرافة صارت تهدده فى حياته ورزقه ، ومن كان لابد من مواجهتها وتحطيم أساطيرها باصطياد السلاحف البحرية .

وعندما تبدأ رحلة الصياد الزنجى العجوز البحرية فإنه يسقط كل القضايا ولا يبقى أمامه سوى عالم البحر والطبيعة والأمواج والرياح والأمطار يتبادل معها الحديث فى وحدته ، ويتحداها ويتنبأ بهبوب الرياح وقرب توقف الأمطار . فهو صياد جيد وخبير متمرس بأحوال الطقس والبحر وحيواناته ، يحاور المطر والريح والبحر ، كما كان يفعل « سنتياجو » بطل هيمنجواى فى « العجوز والبحر » . بل إنه ليخاطب خصمه السلحفاة البحرية كما خاطب سنتياجو خصمه سمكته الضخمة على حين يمد خيوطه ليصطادها . فيقول مسعود لسلحفاته : « عودى إلى بيتك يا سيدتى إن الريح الشرق لا يطاق . وأنا قلت ذلك دائمًا ، ثم قطب حاجبيه وسمع نفسه يقول بِبَلَه : انتظرى ماذا تريدين ؟ أنا مازلت أملك خيطين هنا ، وسوف أعود إليك بمجرد أن أفرغ من مدهما . هل تعتقدين أننى عجوز بطىء إلى حد لا يطاق ؟ »[٢٤]

(٢٣) المصدر السابق ، ص ٢٠ .

(٢٤) المصدر السابق ، ص ٣٧ .

وينادى الشمس ويشهدها على ما اعتزمه من اصطياد السلاحف البحرية بل يسمع نداءات صادرة من أعماق البحر ومن الموج ومن الريح ومن المطر . ويتذكر « الفق » وخرافاته التى يتأثر بها بالرغم من رفضه لها ، ومثلما كان ستيا جو يستهدف صيد سمكة ضخمة معينة كذلك كان الصياد الزنجى يعنى سلحفاة معينة يصطادها ويقلبها على ظهرها ويسحبها خلف قاربه . ولكنه يتميز عن عجوز هيمنجواى بأنه يقرأ آية الكرسى فى اللحظات الحرجة لمواجهة السلاحف البحرية طردًا لخوفه النابع من الخرافات والحكايات القوية عن الأشباح والجان والسلاحف المشبوهة . فإن الصراع مع الخرافة يدور داخليًا فى أعماقه مثلما يدور خارجيًا مع سلاحفه البحرية . لذا فإن تغلبه على الخرافة يتطلب شجاعة وتصميمًا مضاعفين ، لأنه يتصدى لخوفه وللخرافات المختزنة فى روحه وفى سلاحفه البحرية أيضاً .

وتصور الرواية اصطياده للسلاحف البحرية كانتقام لمقتل الصياد الصغير ، وتحد للخرافة ولمزاعم « الفق » حتى نجح فى اصطياد سلحفاته البحرية ويجرها خلفه مقلوبة على ظهرها مشدودة إلى قاربه .

وعلى الشاطئ يرقب الصياد الزنجى جرذًا يأكل حباله فيخاطبه ويصارعه ويمنحه جزءًا من حباله ليأكلها ، ويجر سلحفاته البحرية على رمال الشاطئ مخاطبًا طيور النورس المحلقة حوله قائلا : « هذه مباراة فى شد الحبل أيها الغراب الأبيض . هل يرضى ذلك فضولك ؟ إن عملك العبد يقف وحده فى طرف والبحر يقف فى الطرف الآخر وبجانبه الريح والله والأسياد » .

ويحقق الصياد مسعود الطبال هدفه باصطياد السلحفاة البحرية المنشودة وبيعها مقابل ثلاثة فرنكات والانتصار على « الفق » وخرافاته . ومن ثم خطا خطواته الأولى الناجحة فى سبيل اصطياد سلاحف البحر وبيعها طامحًا إلى شراء قارب بمحرك ، فى حين ازداد إحساس زوجته بالوحدة والغربة والابتعاد عن طريق مكة .

لقد حقق الصياد الزنجى هدفه على حين أخذت عظام ظهره تؤله وكأنها تتكسر ، فقد تحدى نفسه وسنه فى صراعه مع « الفق » والسلاحف البحرية والخرافة وتخطى كبر سنه وآلام عظامه المتراكمة طوال رحلات صيده العديدة . وبينما هو يتجاوز وحدته بالتعاطف مع زوجته الوحيدة مثله أخذت تدلك له عظام ظهره وراح هو يخترع القصص الخيالية عن خطر ذكر السلحفاة والجرذ وعالم البحر . وهو تطويل وحشو لا شك أن الروائى قصد إليه قصدًا لإطالة

روايته ، فجاءت الإطالة كاستطراد لم يخدم أهداف الرواية ولا معمارها الفنى لأنه استطراد وليس نموا أو تطورًا فى شخصية بطل الرواية وأحداثها . ومن أمثلته الحوار الذى يدور بين الصياد والصبى حول العاصفة والبحر والسلاحف والسفن ، أو بينه وبين النورس والعاصفة والشمس أو بينه وبين الإيطاليين حول الحبشة وغيرها فكلها زائدة بدون مبرر فنى . لأن الروائى يخلص من كل هذه الحكايات والحوارات الفرعية ليعود إلى خيطه الرئيسى وبطله الزنجى الوحيد المنتصر على كل خصومه ، من « الفق » وخرافاته إلى المزارع الإيطالى الذى رفض أن يبيعه محركه القديم ليحول بينه وبين تحطيم خرافة السلاحف البحرية ، وهى إشارة إلى تحالف الاستعمار مع التخلف والخرافة ، وهو خيط فرعى ينميه الروائى بذكاء ليبين أوجه التعاون بين « الفق » والوالى والاستعمار الإيطالى من جانب ، والحرب الصامتة بين الليبيين والإيطاليين من جانب آخر .

كان الصياد الزنجى واقفًا فى سوق الصيادين ينتظر عودة رئيس جمعية أصحاب القوارب ليدفع القسط الأول من ثمن قاربه الجديد . غير أن خصومه يتجمعون جميعًا ضده منددين بأفعاله ضد السلاحف المسحورة ، « الفق » ورئيس جمعية أصحاب القوارب والصيادين . وهنا تنشب معركة بدأها « الفق » بلطم الصياد الزنجى بعصاه على وجهه حتى أدماه ، فاضطر الزنجى للرد عليه وطرحه أرضًا حتى كاد أن يقضى عليه لولا أن بادر الحاضرون إلى إنقاذه . وعبثًا حاول الزنجى تبرير عمله بأنه كان دفاعًا شرعيا عن النفس وأنه لم يكن المبتدئ ، فقد تحول من صياد منتصر متفائل إلى زنجى وحيد مغترب محاصر . وتسرب اليأس والضعف والتشاؤم إلى كل صلابته وتصميمه عندما جمع « الفق » أبناء عمومته المسلحين بالعصى وبحثوا عنه فى كل مكان ، حتى عثروا عليه ، وانهالوا عليه ضربًا بالعصى ودافعت عنه زوجته دفاعًا شرسًا .

غير أن خصومه يتحالفون جميعًا ضده منددين بأفعاله ضد السلاحف المسحورة وينهالون عليه ضربًا بالعصى . هنا تنهار آماله وطموحاته ولا يبقى له سوى الله ، فيبحر فى قاربه متجهًا إليه كما تعود أن يناديه فى البحر .

هذه هى أهم الأعمال الروائية العربية الصادرة فى أدب البحر ، وبها تكتمل لوحة أدب البحر عند العرب . وقد حاولنا أن تتمثل فيها النماذج الهامة المعبرة عن مختلف الفنون الأدبية فى

أدب البحر العربى ، بدءا من الشعر الجاهلى وقصص التجار العرب ، إلى الأدب الشعبى وأدب الرحلات البحرية ، وانتهاءً بالرواية العربية البحرية ، كما عرضنا لها فى الفصول السابقة من الكتاب . وحتى تكتمل اللوحة ننتقل ، فى الفصل القادم والأخير ، إلى الغرب ، حيث الوجه الآخر من أدب البحر فى الغرب .